الدلالة النفسية لخطاب المرأة في النص القرآني

المدرس الدكتور
جليلة صالح العلاق
الباحثة
إيمان صاحب الموسوي
جامعة الكوفة / كلية التربية للبنات

الدلالة النفسية لخطاب المرأة في النص القرآني

المدرس الدكتور
جليلة صالح العلاق
الباحثة
إيمان صاحب الموسوي
جامعة الكوفة / كلية التربية للبنات

المقدمة:

إنّ القرآن الكريم كلام الله وهذه الحقيقة العقلية لا يختلف فيها اثنان، لكثرة القرائن والاستدلالات التي تثبت ذلك وما دام القرآن الكريم هو كلام الله فهو خطاب موجه إلى كل المخلوقات، لأنه خطاب الحق الذي يربط بين القلب والعقل، والروح والفكر، فغايته الأولى والرئيسة، هي إخراج الناس من الظلمات إلى النور، ومن الضلال إلى الهدى، فما من امرئ سليم الفكر، نقي الضمير، يتلو القرآن الكريم، أو يستمع إليه إلا تأثر فيه، لِمَ لا، وهو الكتاب الذي أحدث انقلاباً اجتماعياً في حياة العرب، فقد نقلهم من الحمية العصبية، والنعرة الجاهلية إلى أشخاص يصفهم - عزَّ وجَل - بقوله: (مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّه وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً)[1]؛ ذلك بأنه تغلغل في اعماق النفس ودخل كينونتها، مما لم يهتدِ إليه العلم إلا حديثاً، فقد أثبتت البحوث النفسية، في إحدى الجامعات الأمريكية، وجود التأثير المباشر لتلاوة القرآن الكريم في نفوس المستمعين إليه، ممن يعانون من اضطرابات حادة، و آلام نفسية شديدة، وقد أدى ذلك بهم إلى تلمس طريق الراحة من معاناتهم، إذ يذكر الدكتور رجب عبد الحكيم: "إن سماع الآيات القرآنية من قبل المرضى النفسيين، الذي لم يسمعوا القرآن من قبل، ولا يعرفون لغته أصلا، اثبت فاعلية عجيبة في

إيجاد الراحة النفسية لهم، وإعادة الاطمئنان إلى قلوبهم، والعجيب هو حصول هذا التأثير لهم حتى بتلاوة الآيات القرآنية عليهم، وهم نيام، وقد ساعدهم ذلك على التخلص من أزمات نفسية حادة كانت تعصف باستقرارهم العصبي وأمانهم الروحي"[٢]، وفي هذا تصديق لقوله تعالى: {الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ }[٣].

وبعد ذلك كله، فإن من الحري بنا أن نقف عند (الخطاب النفسي)، وقفة تأملية متأنية، نقتبس من خلالها شذرات من القرآن الكريم، تظهر لنا الأبعاد النفسية في ذلك الخطاب المعجز، ولقلة الدراسات في هذا الموضوع، قررنا أن نقف هذه الوقفة، متخذين من المرأة نموذجاً للبحث؛ ذلك بأن الخطاب النفسي واسع لا يسعنا تناوله بالكامل.

نمطا الخطاب القرآني

عند تدبر الخطاب القرآني نجده على نمطين:

الأول: خطاب عقلي .

الثاني: خطاب نفسي.

أولاً: الخطاب العقلي

وهو الخطاب الذي يتوجه إلى العقل مباشرة، فيخاطبه، ويبين له الحقائق البرهانية الصارمة، التي لا يوجد معها مناص، أو جدال، وفي الحديث القدسي، حينما خلق الله-سبحانه وتعالى-العقل قال له :" اقبل فاقبل، ثم قال له ادبر فأدبر، ثم قال: " وعزتي وجلالي، ماخلقت خلقاً أحب إلي منك، ولا أكملتك إلا فيمن أحب ،أما إني إياك آمر، وإياك أنهى، وإياك أعاقب، وإياك أثيب " [٤].

ولذا نجد الخطاب يتجه في بدايته إلى العقل، وبعد أن يتيقن العقل من الحقيقة القاطعة، يلقي أوامره على النفس، وههنا يبدأ الصراع، فالنفس

الإنسانية، نفس آمرة تسعى وراء شهواتها وملذاتها، فهي لها حاجة إلى من يروضها، ويحد من شهواتها، ويكتم أهواءها، ومن الذي بيده زمامها سوى العقل، ومن مشاهد الخطاب العقلي في القرآن الكريم: الخطاب المتعلق بالعبادات، والأحكام، والعقائد ويدخل في ذلك الخطاب الذي يبين أنّ العقل هو مصدر القرارات، وهو أفضل ما أنعم الله على الإنسان، قال -عز من قال- :{أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ } [٥]. إذ جاء قوله تعالى: (أَفَلاَ تَعْقِلُونَ)، لتأنيبهم وتذكيرهم بنعمة العقل التي أنعمها الله عليهم،وميزهم بها عن سائر المخلوقات ،فهم يدركون خطأ فعلهم، ولكنهم يتبعون شهوات أنفسهم، وغرائزها ويتناسون - ولا نقول ينسون - دور العقل الذي يبين لهم خطأ فعلهم هذا، وهناك آيات كثيرة في القرآن الكريم تشير إلى هذا المعنى [٦].

ثانياً: الخطاب النفسي

حينما خلق الله - تبارك وتعالى - المخلوقات، خلقها على ثلاثة أنواع - ناهيك عن الجمادات وبقية المخلوقات -: نوع عقلاني محض، وهب له العقل، وهم الملائكة، ونوع وهب له الشهوات، واللذات، والغرائز، ولكنه بلا عقل، وهي الحيوانات، أما النوع الثالث، فهو أفضل هذه المخلوقات، إذ وهب الله له الغرائز،والشهوات التي تكمن في النفس، وخلق من يروضها وهو العقل وبذلك فُضِّل الإنسان على الملائكة والحيوانات، ولهذا جاء الخطاب معه عقلياً نفسياً، ذلك بأنّ العقل هو الذي يدرك الأمور، فيميز الصواب من الخطأ، ومن ثم يلقي بأوامره إلى النفس،وهي إما أن تنفذ ما يقوله العقل فتسير بصاحبها إلى طريق النجاة، أو تخالف العقل، وتسعى وراء شهواتها، وغرائزها، فتطيح بصاحبها إلى الهاوية .

ولهذا نجد الخطاب القرآني خطاباً نفسياً أكثر مما هو عقلي؛ بل نعتقد

أن ما يقارب ثلثي القرآن الكريم، هو خطاب نفسي، يتوجه إلى النفس، فيعمل على ترغيبها، أو ترهيبها، أو جذبها، أو تحذيرها، ولعل ما ورد من الآيات التي ذكرت الجنة والنار، للترغيب والترهيب، خير دليل على ذلك .

ولوجود قوتين في النفس الإنسانية، أو الفطرة الإنسانية، هما: قوة الخير، وقوة الشر، إذ أشار القرآن الكريم إلى ذلك في قوله تعالى: {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا. فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا. قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا. و قَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا} (٧).

نجده – جلَّ شأنه – يخاطب النفس دائماً؛ لأنها قادرة على أن تتغلب على الحالة الثانية، وتنصر الأولى، أو تخذلها، وتسير وراء الثانية. فلننظر، مثلاً، إلى الألفاظ التي تدل على الثواب والعقاب، والترغيب والترهيب، كـ (الجنة والنار، وحور عين،وجهنم، والأنهار التي تجري، وغيرها كثير)، ألا تقع هذه الألفاظ في ضمن الخطاب النفسي ؟

أو لننظر إلى القصص القرآنية، وما فيها من تشويق، إذ تهتز معها خلجات النفس فتجذبها، ألا نجد في هذه القصص خطاباً موجهاً لنا للاتعاظ والاعتبار من الأمم السابقة،أوليس هذا الخطاب خطاباً نفسياً ؟

أو لننظر إلى الأمثال القرآنية، وما بها من تكريم وترغيب، قال تعالى : {مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ } (٨)، أو ما فيها من تأنيب وترهيب نحو قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً } (٩)، ما الأثر الذي يتركه هذا المثل علينا، أليست هذه الأمثال خطاباً نفسياً ؟

أو لننظر إلى الصور القرآنية، وما تتركه من أثر نفسي في المتلقي، هاك – مثلاً – قوله تعالى: {يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ } (١٠)، من منا لا يرتعد لهذه الصورة القرآنية ؟ أوليس هذا الخطاب خطاب، نفسي ؟

ولندع هذا كله، ولننظر إلى خواتم السور القرآنية، وهي خواتم "لا تبقى في النفوس بعدها إلى تطلع، أو تشوق إلى ما يقال" [١١]، فكم مرة وردت خاتمة الله (غفور رحيم)،أو (عزيز حكيم)، أو (علياً كبيرا)، وغيرها كثير، ألا ترى معي أن هذا الخطاب خطاب نفسي، يخاطب النفس، فيهدؤها حينما يذكرها برحمة الله، أو يخوفها ويحذرها حينما يذكرها بسلطة الله، وعزته، وقدرته.

وليس هذا فقط، بل أثبتت البحوث الحديثة، أن من يعمل على ترتيل القرآن الكريم في الصلاة بحسب قواعد التجويد، يساعد على تنظيم التنفس خلال تعاقب الشهيق والزفير، وهذا يؤدي إلى تخفيف التوتر بدرجة كبيرة، فضلاً عن أنّ حركة عضلات الفم المصاحبة للترتيل، تقلل من الشعور بالإرهاق وتكسب العقل نشاطاً وحيوية [١٢].

إذن من يعلم بالنفس الإنسانية، وحقائقها، وميولها غيره -جل شأنه- فقد يعلم علماء النفس الشيء الكثير عن هذه النفس، وقد نعلم نحن، أكثر منهم، في خبايا، ونوازع أنفسنا، ولكن من قال انه أحاط علماً كاملاً بما يستثير هذه النفس، بما يفرحها، أو يحزنها، أو يغضبها، أو يهدؤها، لا يوجد أحد يعلم هذا غيره – سبحانه وتعالى – {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ } [١٣]؛ ولهذا "نحن نهتز للتعبير القرآني، وننفعل به، ونستجيب له... لان فيه خطاباً موجهاً لنفوسنا، بطريقته الخاصة التي لا تشبه أساليب البشر من مختلف وجوهها ..." [١٤]، وهذا التأثير لا يقع في المسلم فقط بل يقع حتى على غير المسلم الذي لا يُقِر بنبوة محمد (صلى الله عليه وآله)، وبمعجزة القرآن الكريم، هاك، مثلا، قصة المهاجرين إلى الحبشة، وحديثهم مع النجاشي، الذي سألهم قائلاً: "ما هذا الذي قد فارقتم به قومكم، ولم تدخلوا به في ديني، ولا في دين أحد من هذه الملل ؟ فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب (عليه السلام) قائلاً: أيها الملك، كنا قوماً أهل جاهلية نعبد

الأصنام ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسبي الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف،فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا ... فقال النجاشي: هل معك مما جاء به الله من شيء ؟ فقال له جعفر: نعم، فقال له النجاشي: فاقرأه علي، فتلا عليه قوله تعالى: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيّاً ... }[١٥] فبكى النجاشي حتى أخضلت لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلت مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال له النجاشي: إن هذا، والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة، انطلقا، فلا والله لا أسلمهم إليكما" [١٦].

فلا يخفى هنا الأثر النفسي لهذه الآيات فهي التي هزت عواطف النجاشي وأساقفته حتى ضجوا بالبكاء على الرغم من أنّ النجاشي رجل مسيحي، فلذلك الخطاب القرآني يكون موجهاً إلى نفوسنا بطريقة خاصة، لا تشبه طرائق البشر، وهذا ما نسميه اليوم (الإعجاز النفسي) وأول من أشار إليه أمين خولى، وضرب له مثلاً، وهو التكرار وما قال القُدَماء فيه، ثم بين ما قرره علماء النفس حديثاً، من انه أقوى طرق الإقناع، وخير وسائل تقوية الرأي والعقيدة في النفس البشرية [١٧].

والذي نراه أن القرآن الكريم قد سبق علم النفس في الكثير من الأمور؛ ذلك بإن علم النفس في تعريفه الشائع هو " علم دراسة السلوك " [١٨] والقرآن هو خير مقوم للسلوك، فقد عالج كثيراً من المشكلات النفسية، التي يعاني منها بعض أفراد المجتمع، ووضع لها الحلول، وعدَّها من الانحرافات النفسية، كما يعدها علماء النفس المختصون، كـ (الكذب، والقتل، والسرقة، ونظائرها) .

بل قد أشار إلى نظريات يعتقد واضعوها أنها من بنات أفكارهم، ومن جنسها (نظرية التحليل النفسي) لفرويد، التي أشار فيها إلى أن بنية الشخصية تتركب من ثلاثة تراكيب هي :

١- الهو: وهو مستودع الطاقة الغريزية، وهو تركيب أناني محض، يبحث عن اللذة، بدائي لا أخلاقي، متهور، هدفه الإشباع المباشر للحاجة، من دون مراعاة الواقع، فهو يعمل على وفق مبدأ اللذة، ويكون هذا منذ الولادة إلى عمر عامين [١٩].

٢- الأنا: ويعد السيد العقل للشخصية، فهو يحاسب الفرد على الأخطاء والآثام، إذا ما ارتكبها ويكون خلال (٢-٣) سنة [٢٠].

٣- الأنا الأعلى: ويمثل الجانب الخلقي في الشخصية، ويتعلمه الفرد من خمس أو ست سنوات، وهو يبحث بشكل مستمر عن الكمال الأخلاقي[٢١].

وحينما نتأمل القرآن الكريم نجده يقسم النفس الإنسانية على أقسام، هي :

١- **النفس الأمارة:** وهي النفس التي تأمر صاحبها دائماً بارتكاب المعاصي، وعلى البالغ الرشيد أن يكبح شهواتها، وقد ذكرت في سورة يوسف (عليه السلام) في قوله تعالى:

{وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ} [٢٢]

وقد بين الإمام علي (عليه السلام) في تفسيره لهذه الآية الكريمة أن النفس الأمارة: هي النفس المسوِّلة، التي "تتملق تملق المنافق وتتصنع لشيمة الصديق المرافق، حتى إذا أخدعت، وتمكنت، تسلطت تسلط العدو، وتحكمت تحكم العتوِّ، وأوردت موارد السوء" [٢٣] .

٢- **النفس اللوامة:** قبل أن نتحدث عن النفس اللَّوامة لا بد من أن نذكر هذه الرواية، يُقال: بعد طرد إبليس من الجنة، طلب من الله طلبات عدة، منها: أن يولد مع كل طفل، إنسان طفل شيطان، يلازمه ولا ينفك عنه، وقد روي عن الرسول (صلى الله عليه وآله): " إن شيطاني اسلم بيدي" [٢٤]؛ ولهذا السبب لا يكون الإيمان ثابتاً عند الإنسان، بل يسلب منه عند الغفلة، والمعصية، كما

جاء في الحديث " لا يكذب المؤمن وهو مؤمن" [٢٥]، فكل إنسان يرتكب أخطاء - باستثناء الأنبياء والمعصومين - فمهما بلغت درجة إيمانه عند ارتكاب المعصية كالكذب - مثلاً - تسلب روح الإيمان منه، ولما يشعر الإنسان بالندم، والألم يتوجه إلى خالقه يترجاه ويستغفره ويتضرع له من اجل أن يتوب عليه، ويفعل الإنسان ذلك لوجود نفس لوامة تلومه وتؤنبه على فعل الخطيئة، وتدفعه إلى التوبة والاستغفار، وهي نفس عظيمة المنزلة عند الله - سبحانه و تعالى - لذا يقول - جلَّ شأنه -: {لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ } [٢٦]، فالنفس اللوامة: هي النفس التي تلوم صاحبها، وتدفعه إلى التوبة والاستغفار [٢٧]، وهي توافق التقسيم الثاني لفرويد (الأنا) الذي يحاسب فيه الإنسان نفسه لما بدر منه من خطأ.

٣- **النفس المطمئنة:** وهي أعلى درجة من درجات النفس، ولا توجد إلا عند الأنبياء والمعصومين، والأولياء الصالحين، وقد ذكرها - عزَّ وجَل - بقوله: {يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ، ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً، فَادْخُلِي فِي عِبَادِي، وَادْخُلِي جَنَّتِي }[٢٨] .

فقد شابهت (اللهو) (النفس الإمارة) إذ إنها نفس تسير وراء شهواتها، وشابهت (الأنا) (النفس اللوامة)، وشابهت (النفس المطمئنة) (الأنا الأعلى)، وهي نفس عقلانية بعيدة عن الغرائز راضخة لتحكم العقل، إلا إن فرويد وضع مدة زمنية لهذه التقسيمات أما القرآن الكريم فلم يضع مدة زمنية، بل أشار إلى أن الإنسان قد يستمر بهواه إلى نهاية عمره، أي تكون نفسه أمارة، أو ما يمثل (اللهو) عند فرويد. ولو دققنا النظر لوجدنا هذا الصواب، إذ إن هامان، وفرعون، وقارون، وغيرهم كانوا يسيرون وراء شهواتهم طوال حياتهم. وهذا يعني أن تقسيم القرآن الكريم أفضل بكثير من تقسيم فرويد؛ لأنه لم يقيد ذلك بمدة زمنية .

وبعد هذا كله قد يتبادر إلى الذهن سؤال مفاده: ما النفس ؟ في

الحقيقة اختلف العلماء قديماً وحديثاً في ماهية النفس فمنهم من يقول: " إنها جوهر روحاني... وهي مخلوق من نور، وضياء، وأجساد الملائكة، من نور، ولهذا هم أجساد لطيفة، لا تدركهم الأبصار في عموم الأحوال"[٢٩]. وقال آخرون: هي الدم، وهناك من يراها جسماً غير الدم، ومنهم من يعرف النفس على أنها: " القوة الحيوية في الإنسان، والتي تشمل قوة الإرادة، كما تشمل قوة الغريزة، وتعمل واعية، كما تعمل غير واعية "[٣٠].

ثم اختلفوا فيما إذا كانت نفوس بني ادم من جنس، ونفوس البهائم من جنس آخر،وزعم آخرون أن النفوس كلها جسم واحد، وحجتهم في ذلك أن موت الإنسان والحيوان، يتولاه ملك موت في قبض الأرواح، والقائلون إنها من جنسين، يرون: أن ملك الموت يتولى بني آدم في ذلك، أما البهائم فلا يتولاها ملك الموت، وإنما تموت بفناء نفسها.

ومنهم من قال: إن النفس والروح شيء واحد، ومنهم من قال: إن الروح تختلف عن النفس. والحقيقة يبقى الخلاف قائماً حول حقيقة النفس، ما مكنونها ؟ وأين مركزها من الجسم، وهذا السؤال سيبقى مطروحاً حتى يجد من يزيل عنه علامة الاستفهام، أوتبقى عالقة إلى يوم غير معلوم. أما الروح فلم يصل، ولن يصل أحدٌ، إلى معرفتها، ويدل على ذلك قوله - سبحانه وتعالى -: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي}[٣١] .

يتضح مما تقدم أنّ الخطاب القرآني نفسي أكثر مما هو عقلي؛ ذلك بأنّ النفس هي مركز الميول، أما العقل فهو يدرك الأشياء ويقيمها فيميز بين الصواب والخطأ،والحلال والحرام، ولكن النفس تتخذ المواقف، وهي التي تبادر، فبيدها أن تصدق وتعمل بما يقوله العقل، أو تنحرف وتزيغ عما يقوله، لذا عبر عنها - سبحانه وتعالى - بقوله: {فَلَمَّا جَاءتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ، وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً} [٣٢]، فمن الناحية العقلية، أصدر العقل حكمه وقال لهم إن هذه الحقائق واضحة وصحيحة،

ولكنهم جحدوا بها واتبعوا شهوات أنفسهم.

خطاب المرأة في القرآن الكريم:

اشتملت الرعاية الإلهية هذا الكائن اللطيف، فجاء القرآن الكريم بما يناسب طبيعة (المرأة)، وكان الخطاب معها على نوعين: مصرح به، وغير مصرح به. إذ يستطيع القرآن الكريم "أن يعبر عن كل حقيقة صراحة، دون حذر أو تردد، ولكنه يتخذ وسيلة من وسائل التعبير الفني دون تجريح، أو تقريع، أو لوم، أو تعنيف ... يمس النفس مساً رفيعاً، ويداعب العواطف مداعبة هادفة" (٣٣) .

فمن خطاب المرأة غير المصرح به، ما يظهر من خلال كتاب بَعثتْ به إحدى الطالبات الكويتيات للعلامة محمد جواد مغنية تقول فيه:

"جرى حديث بينها وبين جماعة من المطالبات بحقوق المرأة فقالت لهن: إن القرآن الكريم لم يفرق بين الرجل والمرأة، فاعترضن عليها وقُلن: أن القرآن نص صراحة على أن الله سوف يكافئ الرجال الطيبين بحور عين، وسكت عن مكافأة النساء الطيبات بالرجال الأشاوس، والفتيان الفوارس ولو كانت الحقوق سواء، لكان الجزاء من نوع واحد، وتقول إنها عجزت عن الجواب وطلبت من العلامة أن يكتب به إليها لتقنع الفتيات المعترضات ؟

يقول العلامة:

يدلنا هذا الحوار البريء على أن المرأة تماماً كالرجل في غرائزه وميوله، وان القرآن الكريم كما ذكر للرجال الحور العين، ذكر للنساء الولدان المخلدين، وإذا وصف الحور العين بالبيض المكون وصف الولدان باللؤلؤ المنثور في قوله تعالى: {وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَّنثُوراً } (٣٤)، والقرآن لم يصرح بمكافأة النساء بالولدان المخلدين لما لذلك من بُعد نفسي وذلك لما تتميز به المرأة من الحياء والخجل" (٣٥).

ونحن نوافق العلامة في أن القرآن لم يصرح بمكافأة المرأة، ولكننا نخالفه في مسألة الولدان المخلدين ذلك أن الولدان لم يخصوا - في الخطاب القرآني - بالنساء فقط، بل هو خطاب عام موجه إلى أهل الجنة، والولدان المخلدون، هم خدم في الجنة، . " والولدان جمع ولد وهو الغلام، وطوافهم عليهم كناية عن خدمتهم لهم، والمخلدون من الخلد بمعنى الدوام، أي باقون على هيئتهم من حداثة السن " [٣٦].

أما عن مكافأة النساء المؤمنات فان الله - سبحانه وتعالى - سوف يلحقهن بأزواجهن ومن ذلك قوله تعالى: {جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ} [٣٧]، وكذلك في قوله تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ، ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ }[٣٨].

أما النساء المؤمنات غير المتزوجات في الدنيا، أو اللواتي كان أزواجهم كافرين كما هي حال امرأة فرعون، فقد يتزوجن هؤلاء النسوة من الرجال الصالحين، كما هو في قوله تعالى: {وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ، كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ }[٣٩]، وقاصرات الطرف من قصرت أبصارهن على أزواجهن، لا يمددن طرفاً إلى غيرهم، والعين: النجل العيون، شُبهن ببيض النعام المكنون في الاداحي، وبها تشبه العرب النساء ويسميهن بيضات الخدور [٤٠]، فقد تكون قاصرات الطرف هي صفة لنساء الجنة غير المتزوجات في الدنيا، أو زوجات الكفار المؤمنات وبهذا تختلف (قاصرات الطرف)،عن (حور العين)، وقد عبر عنهن - عزَّ وجَل - بقاصرات الطرف ولم يعبر عنهن مباشرة، رعاية لمشاعر المرأة، فلهذا لم يصرح القرآن الكريم بمكافأتهن وهذا هو الشائع عند الناس، إذ يقولون للشاب لِمَ لا تتزوج ؟ ومتى تتزوج ؟ ولا يقولون ذلك للفتاة، رعاية لمشاعرها، وما يغلب عليها من حياء.

أما الخطاب المصرح به: فهو الخطاب البلاغي، وسوف ندرسه من نواحٍ ثلاث وهي: انتقاء اللفظة: سواء أكانت اسماً، أم فعلاً، والتركيب

(الجملة)، والخطاب، أو الحوار بين الله والمرأة أو حوار المرأة، عندما تخاطب الله – سبحانه وتعالى – أو الحوار بين المرأة والبشر.

انتقاء اللفظ وتأثيره النفسي :

يمثل اللفظ المفرد جزءاً من التركيب، الذي يعد دوره جزءاً من السياق، وقد تباينت هذه الألفاظ فمنها الجيدة، ومنها الرديئة، وهنا تكمن قدرة المبدع في اختيار الألفاظ .

وعلى الرغم من امتياز العرب بالقدرة على تطويع اللغة، وجعلها قيد أمرهم فأنهم يتأنون في انتقاء الألفاظ، والبحث عنها، واختيارها منفقين لها كل ما لديهم من طاقات العقل، ودفقات الشعور، أما ألفاظ القرآن الكريم، فهي ألفاظ لها أرواح تحاكي العقل،وتلامس العاطفة، فتنير العقول، وتشرح الصدور ." تنطلق لسبر أغوار النفس البشرية، مستهدية بالنور المشع من حروفها، فتعرف الكثير من الأسرار وتضع يدها على الكثير من روائع الإبداع الإلهي، فتشهد عظمة الله تعالى في كلامه وخلقه" (٤١)، لذا يرى بعض الباحثين: " إن دارس لفظة القرآن يلمس روعة ما فيها من جمال وفن،وصورة الإبداع التي يشع منها، وظلال المشاهد الحية، وقوة الحركة فيها،وتأثيرها على النفس وفتح الآفاق لتحل اللفظة محل ريشة رسام مُبدع، فتصور بالألوان والخطوط، وتنقش فيها الحياة" (٤٢).

فهاك، مثلاً، قوله تعالى في خطاب هارون لأخيه موسى (عليه السلام): {قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي}(٤٣)، قال: (يَا ابْنَ أُمَّ)، ولم يقل: (يا ابن أب)، لِمَا تحمله هذه اللفظة من إيحاءات نفسية إذ أراد أن يرقق قلب سيدنا موسى(عليه السلام)، لَمّا رأى الغضب قد تمالكه، فجاء بلفظة رقيقة في المعنى، رشيقة على اللسان، (فللام) اثر كبير في ترابط العلاقة بين الإخوة، فإذا كان الإخوة من أم واحدة تكون العلاقة بينهم رحيمة، أكثر مما إذا كانوا من أب واحد والأم مختلفة،

ولعل قصة يوسف (عليه السلام)، وتآمر إخوته عليه خير دليل على ذلك، قال تعالى: {لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ }(٤٤)، وقد وصفنا هذه العلاقة بأنها (علاقة رحيمة)، ذلك إن (الرحمة) مشتقة في الأصل من الفعل (رحم)، و(الرحم) هو الوعاء الذي تنشأ فيه البيضة حتى تكبر وتصبح جنيناً، ثم تنمو وتصبح طفلاً (٤٥)، ولو دققنا النظر لوجدنا سورة مريم هي أكثر سورةٍ ذُكر فيها اسم الرحمن ومشتقاته إذ ذكر تسعة عشر مرة (٤٦)، ولو دققنا النظر أكثر، لوجدنا أن هذه السورة تتحدث عن أربع ولادات وهي ولادة يحيى (عليه السلام) في قوله تعالى: { ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا، إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاء خَفِيّاً، قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً، وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً، يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً، يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيّاً }(٤٧)، وولادة المسيح (عليه السلام) في قوله تعالى: {قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْراً مَّقْضِيّاً}(٤٨)، وولادة إسحاق ويعقوب (عليهما السلام) في قوله تعالى: {فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلّاً جَعَلْنَا نَبِيّاً، وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيّاً }(٤٩)،

فمما تقدم نلاحظ إن لفظة (الرحمن) اقترنت بالولادة في كل المواضع التي ذكرت فيها الولادة، والطفل يولد من رحم أمه، فلهذا قلنا إن العلاقة بينهم علاقة رحيمة.

أما في قوله تعالى: { وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ}(٥٠)، فقد استعمل سبحانه وتعالى أسلوب الخبر للدلالة على الأمر الحقيقي، (يرضعن) واصل الكلام: (والوالدات ليرضعن)؛ وذلك لما فيه من إشفاق على المولود، والاهتمام بشأنه، فهذه محاولة لترقيقها أكثر على ولدها. (٥١)

وقد وردت لفظة (الرضاعة) ومشتقاتها في القرآن الكريم إحدى عشرة مرة، وليس هذا فقط بل تحديد المدة بحولين كاملين، وبعد أربعمائة وألف سنة من نزول القرآن، يثبت العلم الفائدة من الرضاعة وانه لا يوجد في العالم حليب يغني عن حليب، الأم وتبدأ وسائل الإعلام، وصفحات الانترنيت، تضج وتستغيث من اجل ترك الرضاعة الصناعية، والعودة إلى الرضاعة الطبيعية، وليس هذا فقط بل تشير الإحصائيات العالمية الصادرة من منظمة الأمم المتحدة إلى أن ما يقارب خمسة آلاف طفل يموتون يومياً؛ بسبب العزوف عن الرضاعة الطبيعية والاتجاه إلى الرضاعة الصناعية . (٥٢)

وللرضاعة الطبيعية أهمية كبيرة على الصعيد النفسي إذ لا يختلف اثنان في أنّ هناك فوائد نفسية عديدة للام والرضيع على حد سواء، أبرزها الشعور بالحنان، ودفء الأمومة، وذلك حينما تضع رضيعها في حجرها يلتقف ثديها، ولهذا يخاطب سُبحانه وتعالى أم موسى بقوله: (أَنْ أَرْضِعِيهِ) (٥٣)، وقد أثبتت العديد من الدراسات أن الأطفال الذين يرضعون الحليب الاصطناعي، يصبحون أكثر عرضة للاضطرابات النفسية والسلوكية.

ولعل ما يحدث في الغرب، من انفكاك في العلاقات الأسرية، وضعف العلاقة بين الأم وأبنائها، من أجلى على إثبات ذلك.

وفي موضع آخر، عندما يصف لنا - سبحانه وتعالى - حال امرأة وقد فتك الحب بقلبها، فتجاوزت كل الحدود حتى أصبحت لا يقف أمامها حد، فخالفت بذلك طريق الصواب، فيصفها - عزَّ وجَل - على لسان نسوة في المدينة، يقول: {وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبّاً إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ } (٥٤)، وقد وصف - جل شأنه - حبها ليوسف بـ(الشغف)، فالحب مراحلٌ " أول الحب الهوى ثم العلاقة: وهي الحب اللازم للقلب، ثم الكلف: وهو شدة الحب، ثم العشق: هو اسم لما فضل عن المقدار الذي اسمه الحب، وكذلك اللوعة: فإنّ تلك حرقة

الهوى،وهذا هو الهوى المحرق، ثم الشغف: وهو أن يبلغ الحب شغاف القلب: جلدة دونه، ثم الجوى: وهو الهوى الباطن يغلب على العقل، ثم التيم: وهو أن يستعبده الحب، ثم التبل وهو أن يسقمه الهوى، ثم التدليه: وهو ذهاب العقل من الهوى، ثم الهيوم: وهو أن يذهب على وجهه لغلبة الهوى عليه، ومنه رجل هائم" (٥٥).

في ذلك نلاحظ دقة الوصف القرآني في انتقاء الألفاظ، فقد وصف حبها ليوسف بالشغف، وقبل الشغف مراحل خمس، هي: (الهوى، والعلاقة، والكلف،والعشق،واللوعة) وفيها يبقى العاشق محتفظاً بعقله، فالحب قد تمكن منها حتى بلغ شغاف قلبها، وبعد الشغف أيضاً مراحل خمس وهي: (الجوى، والتيم، والتبل، والتدليه، والهيوم)، وفي هذه المراحل يذهب العقل، ويكون العاشق عبداً لعشقه،فالقرآن الكريم، عندما صور لنا حال هذه المرأة بين أنها محتفظة بعقلها، ولكن حبها أصاب شغاف قلبها، فهي عاقلة تدرك ما يدور حولها، وبهذا يكون ألمها أكثر مما لو كانت مجنونة، مما يجعلنا نتعاطف معها، و(الشغف) مشتق من الشغاف: وهو غلاف القلب، (حباً) واصلها شغفها حبه: أي أصاب حبه شغفها: أي اخترق الشغاف فبلغ القلب، كناية على التمكين (٥٦).

وقد وصفت بالضلال، و (الضلال): من ضل: أي ضاع وهلك، وهو مخالفة الصواب، أو طريق الصواب (٥٧)، أي انها مفتونة القلب بحب هذا الفتى، وعلى ما نرى، ليس المراد بالضلال هنا الضلال الديني، لان هناك مفتوناً آخر بيوسف وُصِفَ بالضلال وحاشاه أن يكون في ضلال ديني، ألا وهو يعقوب (عليه السلام)، في قوله تعالى على لسان أخوة يوسف (عليه السلام): {إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} (٥٨)، ولو قارنا حب زليخة ليوسف، وحب يعقوب (عليه السلام) له، لوجدنا أن حب زليخة كان أكثر،وقد أجاد القرآن الكريم بوصفها وكان تركيز الخطاب القرآني عليها أكثر من تركيزه على يعقوب (عليه السلام)، وان كانت

زليخة امرأة جامحة، ولنقف على ما ورد في خطاب نساء المدينة اللواتي قلن عن زوجة العزيز: أنها (تُرَاوِدُ)، ولم يقلن (راودته) إذ استعمل صيغة المضارع المستمر، لما تحمل من دلالة على الاستمرار والتتابع، بدلاً من صيغة الماضي؛ للدلالة على بقائها على عملها الشائن من مراودة فتاها، وأنها غير منقطعة عن ذلك .

ومن أمثلة الخطاب النفسي القرآني ما نجده في تصويره - عزَّ وجَل - لأهوال الساعة، إذ يقول: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ، يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ } (٥٩) .

فنجده - سبحانه وتعالى - أورد لفظة (مرضعة)، ولم يرد عن العرب أنهم استعملوا هذه اللفظة بل يقولون (مرضع)؛ ذلك انه -جل شأنه- أراد تصوير أهوال هذه الساعة،على نحو يرتعد منه المتلقي عند سماعه ما يتناسب وأهوال ذلك اليوم، فقال: (مرضعة)؛ لأنه لا يقصد أي مرضع، بل المرضع التي تباشر في رضاعة ابنها، أي إن ابنها في حجرها فتدعه وتفزع لهول ما تراه، وذكر أول ما ذكر المرضعة؛ لأنه لا توجد علاقة أسمى وأرقى من علاقة المرضع برضيعها، فما بالك في الساعة التي ترضعه فيها، "ولو قال تعالى: تذهل كل امرأة عن ولدها، لكان بياناً حسناً، وبلاغة كاملة، وإنما أراد أن يزيد في الفزع، ويضاعف في الشدة، فخص المرضعة للمبالغة، لان المرضعة أشفق على ولدها؛ لمعرفتها بحاجته إليها، وهي أشفق به لقربه منها ولزومها له، لا يفارقها في أية لحظة " (٦٠).

وتطالعنا روعة الخطاب القرآني عندما يخاطب - عزَّ وجَل- مريم، أو يتحدث عنها، من ذلك قوله تعالى: {وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ }(٦١) إذ وصفها بـ(القانتين)، مستعملاً صيغة جمع المذكر السالم، التي تشير إلى القانت

لله، وليس ثمة داع وراء عدم استعمال صيغة جمع المؤنث (قانتة)، سوى التأكيد على أهمية مثال مريم لكل المؤمنين من الذكور أو الإناث، وهذا انتصار نفسي لمريم بشكل خاص، وللمرأة بشكل عام إذ يضربها - الله تعالى مثالاً لكل الرجال، على حين كانت المرأة في عصر مريم، تحرم من الدخول إلى بيت المقدس لأداء أعمال العبادة؛ لأنهم يرونها حكراً على الرجال .

ومن الألفاظ التي استعملها كتاب الله لفظة (المعلقة) في قوله - عز من قال -: {وَلَن تَسْتَطِيعُواْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ النِّسَاء وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلاَ تَمِيلُواْ كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً}(٦٢).

فـ(العدل) الذي ذكره - عزَّ وجَل - هنا، عدل غير مستطاع، ذلك العدل هو العدل في الميل والمحبة، لأنه ليس تحت قدرة البشر، بخلاف العدل في الحقوق الشرعية،فانه مستطاع، وهذا لا يعني انه يميل كل الميل إلى واحدة، ويترك الأخرى كالمعلقة، وهي ليست بذات بعل أو مطلقة (٦٣)، فقوله تعالى: (فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ)، ضرب من التوبيخ لمن يفعل ذلك، ولعل لفظة (معلقة)، تتلاءم مع الحالة النفسية التي تكون عليها هذه المرأة، من انكسار، وحزن، فهي كالشيء المعلق، الذي لا حاجة له، وقد صور القرآن الكريم انحراف الرجل، وميوله، وعدم عدالته، من جانب نفساني دقيق، بقوله: (وَلَن تَسْتَطِيعُواْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ النِّسَاء) (٦٤).

وفي موضع آخر يقول - جل شأنه -: {فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً}(٦٥)، إذ نلحظ مدى الأهمية التي يوليها - سبحانه وتعالى - للعدالة، ويعني بها العدالة في المحبة والعاطفة، وهذا إن دل على شيء فهو يدل على مدى مراعاة الخطاب القرآني لمشاعر المرأة وأحاسيسها.

التركيب وأثره النفسي:

تمثل الجملة: قوام الكلام المفيد إذ تتألف بضم كلمة، أو أكثر، إلى

بعضها لتدل على معنى معين [٦٦]، والجملة: هي الصورة الأولى لتأليف الكلام، إذ يحيل بها المبدع المادة المخلوقة في الطبيعة إلى معانٍ يتصورها المتلقي، وكأنها موجودة أمامه، وقد ينجح الأديب في شد ذهن المتلقي في صور مبهرة، لا وجود لها بالحقيقة، فتجعله يتخيل هذه المعاني، وقد أكد الفلاسفة وعلماء النفس أن الإنسان له استعداد وميل إلى التأثر بالخيال، إلى درجة تفوق تأثره بالحقيقة والواقع؛ ذلك بأن " الكلام المخيل تذعن له النفس، فتبسط عن أمور من غير روية وتفكر .. وبالجملة تنفعل له انفعالاً نفسياً" [٦٧]

أما في القرآن الكريم، فإننا لم نجد خيالاً مطلقاً [٦٨]؛ لان وقائعه كلها حقيقية،فأحداث الأمم السابقة لم تكن أساطير، وما يؤول إليه الناس ليس في الخيال، بل هي كلها أحداث حقيقية، وعلى الرغم من عدم ميل جمل القرآن إلى الخيال، فإنها تترك أثراً في نفوسنا أكثر من أي كلام آخر، سواء أكان خيالاً أم حقيقة، وهذا شيء يعد بحد ذاته (إعجازاً قرآنياً)، ومن ذلك قوله تعالى: {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } [٦٩] .

إنّ هذه الآية تبين لنا تضرع السيدة (آسية) إلى ربها، من أجل النجاة من فرعون وأتباعه، وفي هذا الدعاء أسمى ألوان الأدب، فهي تطلب من ربها أن يعوضها عن دار فرعون داراً في أعلى درجات الجنة، [٧٠] وهذا الدعاء يُشعر بان فرعون، وأتباعه قد صدّوها عن الإيمان، وخيّروها بين الإيمان وقصر فرعون، وزينته، الْجَنَّةِ}.

وعند تأمل هذه الآية الكريمة، والوقوف عندها وقفة متأنية، تجدنا نتساءل: ألم تكتفِ بالقول: (ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتا)؟ أو تقول (ابْنِ لِي بَيْتا فِي الْجَنَّةِ) ؟ ولماذا جاءت بـ(عندك، و في الجنة)، في جملة واحدة ؟ والجواب: إنها طلبت القرب من الله، ثم بينت القرب بقولها: (في الجنة)، فقولها عندك إشعار بان محبتها القرب من رحمته – جل شأنه – أهم من أي شيء آخر، بعد

أن ملأ الإيمان قلبها، فضلاً عما عانته من ظلم فرعون في الدنيا، فلم يبق لها ملجأ إلا الله، ولعل تكرار لفظة (نجني) خير دليل على ذلك.

وهذا الخطاب الذي نلاحظه هنا يصور لنا صراعاً نفسياً كانت تعيشه هذه المرأة، ذلك الصراع الذي يتمثل بالألم والحزن ويُشعر بالظلم الذي كانت تعانيه، فلم تطلب من الله في خطابها له ودعائها إياه أن ينصرها على فرعون، كما طلب نوح (عليه السلام) من الله تعالى أن ينصره على قومه في دعائه: {قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ} [٧١]، بل طلبت منه - جلَّ شأنه - أن ينجيها منه، ولعل لفظة (نجني) تعني أن يخرجها الله من هذه الدنيا، فقد دعت مريم (عليها السلام) بمثل هذا الدعاء حينما قالت :{ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْياً مَّنسِيّاً}[٧٢]، أي إنهن يبتعدن عن المواجهة، ولا يجدن حلاً سوى الموت،بخلاف الرجال الذين يطلبون من الله أن ينصرهم في الدنيا، وفي الحقيقة، هذا لا يدل على ضعف في شخصية المرأة بل يكشف عن رقة، هذا الكائن العاطفي ويكشف عن رهافة نفسه، فهو لم يخلق للمواجهة، وليس هذا من واجباته، ولعلنا نلتمس من هذه الحقيقة جواباً لسؤال لطالما سمعناه، مفاده لماذا لم يجعل الله تعالى المرأة نبيه ؟.

ومن الخطاب الذي جاء بصيغة الدعاء، قوله تعالى: {وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ }[٧٣]، "فإذا قلت: لماذا ذكرت تسميتها مريم لربها ؟ قلت: لان مريم في لغتهم يعني (العابدة)، فأرادت بذلك التقرب والطلب إليه أن يعصمها حتى يكون فعلها مطابقاً لاسمها، وان يصدق ظنها بها، ألا ترى كيف اتبعته طلب الاعاذة لها، ولمولودها من الشيطان وإغوائه"[٧٤]، وهذا بعد نفسي دقيق.

أما في قوله تعالى: {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ }[٧٥].

يقال أنّ هذه المرأة، هي (خولة بنت ثعلبة) امرأة (أوس بن الصامت)

قد جاءت الرسول (ﷺ) بعد أن ظاهر منها زوجها، فحُرمت عليه، واستمر الحوار والجدال بينها وبين الرسول (ﷺ) حتى انزل الله حكم بطلان الظهار، ففي جملة (قد سمع الله)، وردت (قد): ومعناها التحقيق والتأكيد، لان الرسول (ﷺ) والمجادلة (خولة)، كانا يدركان سماع الله مجادلتهما وشكواها، وينزل في ذلك ما يفرج عنها، ويزيل همها، والذي يتضح لنا أن هذه الحادثة، تدل على أن من انقطع رجاؤه من الخلق، ولم يبق له في كشف همه سوى الخالق، كفاه الله ذلك الهم.

وفي خطاب الله لنساء النبي (ﷺ) قال: {وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى}(٧٦)، وهو خطاب عام يشمل جميع النساء، لان نساء النبي أمهات المؤمنين والمؤمنات، وقد أورد فيه صيغة الفعل (قرن)، للدلالة على ملازمة الدار، وإذا أردتن أن تخرجن فهو مباح ولكن بشرط عدم التبرج، وقرن: من القرار، وقيل من الوقار(٧٧)، أي من الوقار والهيبة لكن أن تلازمن الدار ثم أردفه بقوله في (بيوتكن)؛ للإشعار بان بيت الزوجة، أو الحجرة التي تسكن فيها هي ملك لها وليست من ملك الزوج .

وهكذا يقدم السياق القرآني هذه الجملة الموجزة التي تحمل بين أحرفها أبعاداً دلاليةً واسعةً، منها: البعد النفسي، والبعد المادي في سياقٍ تتمثل فيه مكانة النساء، ومدى مراعاة الخطاب القرآني لهن .

في قوله تعالى {وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ}(٧٨)، يصف – سبحانه وتعالى – أم جميل زوج أبي لهب بجملتين، الأولى "حمالة الحطب"، وعلى الرغم من إن هذه جملة قصيرة، فإنها تحمل معانٍ كثيرة (٧٩)، منها: أنها تصف لنا جانباً من شخصية هذه المرأة الكافرة، فحمل الحطب استعارة عن المرأة التي تثير الفتن، فهي كمن يضع الحطب على النار من اجل إشعال الفتن وفي هذه الجملة تأنيب لهذه المرأة على عملها الشائن، والتأنيب أسلوب من الأساليب النفسية، ذلك بان من لوازم التأنيب

الندم.

أما الصورة الثانية فهي " فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ "، فقد ذكر الآلوسي في تفسيره "إنها ماتت، يوم ماتت، مخنوقة بحمل عملت به حزمة حطب" (٨٠)، من خلال هاتين الجملتين نلحظ أن الجملة الأولى أشارت إلى إعجاز بياني إذ استعمل حمل الحطب بالإشارة إلى صفة نفسية ذميمة كانت تتميز بها هذه المرأة، والجملة الثانية أشارت إلى إعجاز غيبي، إذ أشارت إلى الكيفية التي تموت عليها هذه المرأة.

وحينما نذكر امرأة أبي لهب نريد بيان إن مثل هذه المرأة لا يخاطبها الله، بل يصفها ليجعلها عبرة، فهي لا تستحق أن يخاطبها - جل شأنه -، والاتعاظ والاعتبار أسلوبان من الأساليب النفسية التي تستعمل في حياتنا اليومية، حينما نقول لزيد من الناس مثلاً: انظر إلى مال فلان أو عاقبته لكي يتعظ ويعتبِر فلهذا يستعملهما سبحانه بذكر قصص الكافرين ونهايتهم لما لهذه القصص من تأثير نفسي على المتلقي عموماً .

الحوار وأبعاده النفسية :

لقد فتح الله سبحانه وتعالى باب الحوار منذ البدء على مصراعيه، فحينما خلق آدم (عليه السلام)، حاور الملائكة حول خليفته في الأرض، وأمر إبليس أن يسجد له فأبى واستكبر، في حوار يكشف عن غرور هذا المخلوق، وفي وقت لاحق جرى حوار بين الشيطان وآدم، وحواء حول شجرة التفاح التي كانت نتيجته خروج أبوينا من الجنة،وتحرك الحوار، وهو الحوار الذي دار بين قابيل وهابيل اللذين قربا قربان فتقبل من احدهما، ولم يتقبل من الآخر، ليكون من جهة هابيل حواراً عقلياً هادئاً، ومن جهة قابيل غريزياً عنيفاً، ثم تدرج بعد ذلك ليكون بين الأنبياء وأممهم؛ لإخراجهم من الظلمات إلى النور، وهكذا تتزايد صوره وتتعدد حتى بدا يشغل ما يقارب ثلثي القرآن الكريم،

والـذي دفعنـا إلى إلقـاء الضـوء علـى بعـض جوانبـه، انـه يُعـد أحـد أسـاليب الخطاب [٨١]؛ ولأنه يحمل في طياته أبعاداً نفسية تلقي بظلالها على المتلقي، فتأسر روحه، وتجعله يتأثر فيها، ويتفاعل معها، وقد دخل الحوار القصة القرآنية متدرجاً بها "من الإشارة إلى التفصيل، ومن العام إلى الخاص، ومما تغنى به العاطفة إلى ما يحتاج الفكر والنظر" [٨٢]، والحوار في القرآن الكريم يلقي الضوء على الجوانب النفسية، إذ انه يكشف عن حديث المرء لنفسه، أو يكشف عن مناجاته لربه [٨٣]، وأول حوار نتناوله، هو حوار يصف حالة أم ألقت برضيعها في بحر تتلاطم فيه الأمواج خشية أن يقتله أتباع فرعون، فأصبحت كمن يستجير من الرمضاء بالنار، ونوازنه بعاطفة أب مشفق يرى ابنه في خضم تلاطم الموج بعد أن تيقن أن ابنه لم يخسر حياته الدنيوية الفانية فقط بل سيخسر حياته الأبدية أيضاً قال تعالى في محكم كتابه العزيز: { وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ، فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ، وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ، وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ، وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ، فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}[٨٤]، هذه القصة تبين لنا مسيرة نجاة سيدنا موسى (عليه السلام) من القتل على أيدي فرعون وأتباعه، ولكننا إذا أنعمنا النظر فيها، ووقفنا عندها وقفة متأنية، متأملة نجد الحديث عن أمه (يوكايد) أكثر من الحديث عنه، ونجد هذه القصة مشحونة بالعاطفة ومراعاة الحالة النفسية التي مرت بها هذه المرأة من بدايتها إلى نهايتها، وهناك أكثر من

شخص في هذه القصة وهم (موسى) (عليه السلام): الطفل الملقى في اليم، و(فرعون)، و(آسية) زوج فرعون و(هامان) وزير فرعون، و(مريم) أخت موسى ويقال لها (ميريام)، ولكن كان دور البطل (ليوكايد): أم موسى متغلباً في هذه الآيات الكريمات، إذ بدأت هذه القصة بخطاب الله لها وختمت بالحديث عنها، فبعد أن أمرها – عزَّ وجَل – بإلقاء رضيعها في اليم أراد أن يهدئ من روعها فخاطبها بقوله: { لَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي }، والخوف: غم يلحق الإنسان لتوقع مكروه [٨٥]، أما الحزن: فهو غم يلحق الإنسان لواقع أو ماضٍ[٨٦]. فيصف لنا الله – سبحانه حال – هذه الأم وما يعتريها من خوف وحزن على رضيعها، ولكي يهدؤها – جل شأنه – يسوق لها البشارة في قوله:{ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ } ليقنعها ويطمئنها لأنه اعلم بحالها، وعلى الرغم من بشارة الله لها برجوع ولدها إليها، وجعله من المرسلين، فإنها لم تستطع الصبر، {وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ }، فـ (أصبح) هنا: بمعنى صار: أي صار بالها، وعقلها، وفكرها مشغولاً عن أي شيء ماعدا موسى، وهنا – سبحانه وتعالى – استعمل (أن) الخفيفة من الثقيلة لأنها كادت أن تظهر الأمر .

ثم يبين لنا – سبحانه وتعالى – جزعها وحيرتها، وذلك من الطبع البشري الملازم لضعف البشرية، وهي وان كانت امرأة صالحة، فإنها تبقى أماً، فيرسم – سبحانه – ذلك بصورة تثير التشويق، وتجعل في قلوبنا الشفقة، إذ تطلب من ابنتها أن تتفقد أخاها الرضيع، وترى ما آل إليه – على الرغم من أن الله سبحانه وتعالى وعدها بإرجاع طفلها إليها – وهكذا تدور أحداث القصة، حتى يرجع الرضيع إلى أمه {فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ} وهكذا تبدو لنا روعة الخطاب، ومراعاة هذه الأم، فلم يعوض – جل شأنه – عنها بضمير، فلم يقل: (فرددنا لها)؛ لأنه يتكلم عن أم فقال: (أمه)؛ لما لهذه اللفظة من إيحاء نفسي، الأمر الذي جعل هذه اللفظة تكررت في أكثر من

موضع في قصة موسى (عليه السلام)، قال تعالى: { وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى، أَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً، فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ }، ذلك أنها: لوحة إنسانية تصف لنا حالة أم، ومدى حزنها وهمها عند فقدان ولدها، ومن هنا نتلمس دوران أحداث القصة، على نسق تكون فيه مراعاة أم موسى من أهم الأمور الظاهرة، إذ بدت لنا حالة هذه الأم وما آلت إليه، صوراً شاخصة متحركة تظهر مشاعر أم كانت في عمق صراع بين الامتثال إلى أمر الله سبحانه وبين خوفها فكأن ما بداخلها من تزاحم أحاسيس وعواطف وتلاطمها يحاكي تلاطم أمواج البحر التي كانت تأخذ بولدها يميناً وشمالاً .

وما ذكرناه في هذه القصة يذكرنا بفن بلاغي يسمى (الاستدراج) وباب الاستدراج باب واسع وهو "أن يقدم المخاطب ما يعلم انه يؤثر في نفس المخاطب من ترغيب وترهيب وإطماع وتزهيد [٨٧] "فقد أمر سبحانه وتعالى أم موسى بالتلطف والاستدراج عندما أمرها بإلقاء رضيعها في اليم، ثم بعد ذلك ساق لها البشارة ليؤثر في نفسها بالترغيب عندما وعدها بإرجاع رضيعها وجعله نبياً، ومما تجدر إليه الإشارة إن قوله – سبحانه وتعالى -: {وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ}، تعد من دقائق الإعجاز القرآني؛ ذلك بأنها حملت معانٍ كثيرة في عدد يسير من الألفاظ، وهذا فن بلاغي أيضاً يسمى (القصر)، ومن الطرافة أن نذكر قصة تخص هذه الآية، حكى الأصمعي انه سمع جارية إعرابية تنشد وتقول:

استغفر الله لديني كله ... قبلت إنساناً بغير حلّه

مثل الغزال ناعماً في دله ... انتصف الليل ولم أصله

فقلت: قاتلك الله ما أفصحك، فقالت: أيعد هذا فصاحة مع قوله تعالى: {وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى...} إذ جمع في آية واحدة بين (أمرين، ونهين، وخبرين، وبشارتين).

فالخبران هما: (وأوحينا إلى أم موسى)، وقوله: (فإذا خفت عليه) .
والأمران هما: (ارضعيه)، و (القيه).
والنهيان هما: (و لاتخافي)، و (ولا تحزني).
والبشارتان هما : (إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين). (٨٨)

وفي موضع آخر يصف لنا القرآن الكريم عاطفة أب يرى ابنه يتلقفه الموج، والموت هنا محتم لا محالة، وإذا كان الله قد وعد في القصة الأولى برجوع موسى (عليه السلام) إلى أمه، فإنه سبحانه هنا يخبر نوحاً (عليه السلام) بان مآل هذا الولد العاق إلى جهنم، وعلى وفق هذه المعطيات يجب أن يكون حزن وخوف نوح اكبر، وعلى الرغم من عقوق هذا الولد فانه يبقى والده.

يقول – عزَّ وجل – { وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلاَ تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ، قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاء قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ }(٨٩)

هنا نلاحظ طغيان عاطفة الأبوة على نوح، فراح بلهفة وتضرع يدعو ابنه، ولكن الابن العاق لا يأبه لهذه العاطفة فيأخذه الموج.

والذي دفعنا إلى ذكر هذه الآية، إنها تشكل مع الآية الأولى صورتين تصفان حالة أب وأم يريان ابنيهما في تلاطم الأمواج – وان كانت هناك فروق إلا انه هناك تشابه – ومن خلال وقفنا عند العاطفة التي طغت على الأب والأم، نجد أن عاطفة المرأة الأم لا تدانيها عاطفة، فلم يصف الله حال نوح كما وصف حال أم موسى، فقد راعى الحالة النفسية لهذه المرأة، ذلك بإن المرأة هي مصدر العاطفة، بل العاطفة نفسها، والأمومة تعد من مكملات المرأة، فلو عدنا إلى القصة الأولى، قصة أم موسى، نجد امرأة فرعون تقول لفرعون: (نتخذه ولدا)؛ ذلك إن هذه المرأة ليس لها أولاد، فأرادت أن تجعل من موسى (عليه السلام) ولداً لها، إذ تعد الأمومة "عند المرأة أمل الآمال ومصدراً من

مصادر الإشباع النفسي لدوافع سيكولوجية هامة عند المرأة كدافع الحب وغيره" (٩٠).

وهناك حوار آخر يبين لنا حال امرأة كانت أفضل نساء عصرها، وهي المرأة الوحيدة التي صُرِّح باسمها في القرآن الكريم، وليس هذا فقط، بل خصصت سورة كاملة في القرآن الكريم باسمها، وهي (قصة مريم)، وعندما نتأمل هذه السورة تطالعنا ألفاظ: (الرحمن، رحمت ربك، رحمتنا)، فإذا بها سورة أكثر ما يذكر فيها اسم الرحمن؛ ولعل السبب في ذلك؛ أنها تصور لنا حال امرأة تحمل بأمر الله، وتقوم برحلة منفردة في الصحراء، لتلد بمكان قفر لذا، أحاطت بها الرحمة الإلهية. (٩١)

قال تعالى: { وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيّاً، فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَاباً فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً، قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّاً، قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَاماً زَكِيّاً، قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيّاً، قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْراً مَّقْضِيّاً، فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيّاً، فَأَجَاءهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْياً مَّنسِيّاً، فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً، وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً، فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيّاً، فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً، يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً }.(٩٢)

هذه الآيات تتحدث عن (الطفل المعجزة)، الذي لا يكون معجزة إلا بخرق قوانين الطبيعة، وهذا الخرق تمثل بولادة سيدنا المسيح (عليه السلام) إلا إننا نلحظ أن الحديث كان عن مريم وحوارها مع الرسول، ثم رحلتها و انتباذها قومها، ثم وعودتها إليهم بطفلها، أكثر من الحديث عن عيسى (عليه السلام)، وقد

برزت شخصية مريم بالجانب المتعلق بأنوثتها، على سبيل الانفعالية بالبشارة، واتهام قومها لها، وفي موقف المخاض برزت شخصية الأم وعلاقتها بولدها .

وهذا يدل على أن الخطاب القرآني، لا يستحي من لغة الأنثى في موقف المخاض والولادة، و لم يطالعنا اسم سيدنا المسيح في كل القصة فلم يظهر إلا في آية التعقيب، وكان الخطاب موجهاً إلى السيدة مريم فقط [٩٣]، وسنتناول جانباً من هذا الخطاب، ذلك بأن المقام لا يسمح لنا تناوله بالتفصيل، ففي قوله – سبحانه وتعالى – على لسان مريم، بعد أن تمثل لها الرسول بشراً سويا: {قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَن مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّاً}، ففي هذه الآية نلحظ جوانب متعددة من شخصية مريم، منها الخجل، وهي صفة لا تنفك عن النساء الحييات، اذ كانت وحدها وتمثل لها الرسول بهيأة رجل: {فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً} ومنها: الخوف والضعف، فهي مرأة لا تستطيع المقاومة، وتبلور عن ذلك الاستعانة واللجوء إلى الله – سبحانه وتعالى –، ولم تقل أعوذ بالله أو أي اسم من أسماء الله الحسنى، بل انتقت لفظة (الرحمن)؛ لما لهذه اللفظة من اثر نفسي؛ لأنها تعلم أن الله رحيم بعباده المخلصين من جهة، ولترقق قلب الرسول وتجعل في قلبه الرحمة تجاهها من جهة أخرى، وهذه صفة من صفات النساء في انتقاء الألفاظ الرقيقة في خطابهن مع الآخرين، وبعد أن أعطاها الله البشارة بحملها بنبي مهدئاً من روعها، وحينما تيقنت انه رسول الرحمن، وانتبذت قومها، وجاءها المخاض: { قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْياً مَّنسِيّاً}

وقد أشار الرازي إلى أنها قالت هذا نتيجة لألم نفسي، لأنها أحست بقرب موعد الولادة، فبدأت تفكر: كيف تدخل على قومها ؟ وماذا تقول لهم؟ وكذلك لألم جسدي، أي نتيجة لألم المخاض.

وهذان الألمان هما اللذان دفعاها الى قول هذه العبارة [٩٤]، وقد عبر عنها بقوله "ألم الروح وألم البدن" [٩٥] وهذه صفة من صفات النساء أيضاً،

الدعاء على النفس، وتمني الموت [٩٦]، ومن ذلك قول الخنساء. [٩٧]

ألا ليـت أمـي لم تلـدني سـوية   وكنـت ترابـاً بـين أيـدي القوابـلِ

ثم جاءها النداء من تحتها: { أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً، وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً، فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيّاً }.

لم يُخاطَب شخص في القرآن الكريم بهذه الطريقة الإنسانية البحتة، التي لا تهدئ من روع مريم فقط، بل نجدها تلقي بظلالها على كل من يقرأ هذه الآيات، فتثلج صدره وتشعره بالأمان؛ لما تحمله من أبعاد نفسية عميقة، ففي قوله تعالى: (أَلَّا تَحْزَنِي)، خطاب لها بألا يصيبك الحزن والهم والغم لما مر بك، وفي قوله تعالى (فَكُلِي وَاشْرَبِي) دلالية نفسية أخرى، لعلم الله – جل شأنه – بحال المرأة وما يصيبها من ضعف وإرهاق في أثناء الولادة وبعدها، فيأمرها بالأكل لاستعادة طاقتها واشتداد عودها بعد ما لاقته من الم، ومعاناة، ويستوقفنا قوله تعالى لها قبل أن يأمرها بالأكل: {هُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ}، والنخلة بطبيعة الحال لا يهز جذعها، فكيف بامرأة تعاني الم المخاض، وهي على ماهي عليه من الضعف والوهن، ناهيك عن الألم النفسي يطلب منها أن تهز بجذع النخلة؟ ولعل الجواب عن ذلك انه – عزَّ وجَل – أراد أن يعلم الإنسان أن يسعى إلى رزقه، وان يمد يده إليه وان يسير نحوه، إذ إن كل عطاء إلهي مشروط بجهد إنساني، فتلك هي سنة الله في خلقه، فالهز هنا – والله اعلم – لا يراد به هز جذع النخلة، بل أراد به الضرب ببعض النخلة، أي أن تضرب النخلة فينزل التمر. والسؤال الآخر الذي يطرح هنا هو: لماذا التمر ؟ ويبدو أن الجواب يكمن فيما أثبته العلم الحديث حيث أثبت بان التمر، لاسيما (الرطب)، فيه كمية من هرمون البيتوسين، وهذا

الهرمون من خواصه ان يعمل في انقباض الاوعية الدموية في الرحم، ومن ثم يساعد على منع حدوث النزيف الرحمي، فضلاً عن ذلك يعد التمر مهماً في تكوين لبن الرضاعة، وتعويض الام عما ينقصها بسبب الولادة؛ وذلك لاحتوائه على عنصري (الحديد والكالسيوم)، فضلا عن فيتامين (أ) وهذه مادة هامة لنمو الطفل الرضيع وتكوين الدم والنخاع [٩٨] .

أما في قوله تعالى "فكلي واشربي" فقد أكد العلم أيضاً أن الرطب يحتوي نسبة عالية من السكاكر البسيطة السهلة الهضم، وهو مصدر الطاقة الأساس، وهو الغذاء المفضل للعضلات، وعضلة الرحم تعد من أضخم العضلات، و مختصو التوليد يقدمون للحامل في حالة المخاض الماء على شكل سوائل سكرية[٩٩]، وقد نصت الآية على إعطاء السوائل أيضاً بقوله (فكلي واشربي) وهذا إعجاز علمي آخر.

ومما تقدم نلحظ روعة القرآن الكريم وإبداعه في إنتاج الخطاب النفسي، ففي آية قصيرة وجدنا تراكماً دلالياً يحاكي إذ كشفت هذه الآية عن دلالات كثيرة، وهناك بالتأكيد دلالات أخرى لم يتوصل إليها إدراكنا المحدود، فوجدنا فيها الحكمة إذ تعلمنا لماذا نسعى، ووجدنا فيها الإعجاز العلمي، وكيف راعى الله المرأة في خطابه لها، ناهيك عن الإعجاز البياني، ويمكننا أن نسمي هذه الآية ومثيلاتها في القرآن الكريم بالآيات ذات الإشعاع الدلالي إذ يوجد فيها أكثر من دلالة .

ونبقى في رحاب هذه القصة المثيرة للنهل منها المزيد فنقف عند قوله لها: لا تكلمي أحداً من البشر فنحن سوف نتكفل عنك بهذه المهمة وقوله في خطابها (للرحمن) من دون ان يستعمل اسم آخر فيه دلالة نفسية لمريم؛ إذ يريد أن يشعر مريم بأنها تحت رحمة الله، فهذه صفة ربكِ الرحمن، وأنت تحت رحمته، فلا تخشي أحداً من قومكِ.

وبعد أن هدأ ألم مريم الجسدي والنفسي ذهبت إلى قومها حاملة

صغيرها، فقالوا لها: { يَا أُخْتَ هَارُونَ}، على الرغم من أن مريم جاءت بنظرهم بأمر خطير وعظيم، إلا إنهم عندما حاوروها لم يستعملوا معها الألفاظ الجارحة والبذيئة، كالتي استعملها المشركون عندما بلغهم رسولنا(ﷺ) برسالته: (كالمجنون، والشاعر، والكاهن، والأبتر)، وحاشا رسولنا من ذلك، وإنما قالوا لها: (يا أخت هارون)، وأخت هارون: هي مريم أخت موسى(عليه السلام) وكانت معروفة بالشرف والعفة، وشُبِّهت مريم بها للتأنيب، إذ خاطبوها بهذه الصيغة، مراعاة لها لكونها امرأة، وهكذا تستمر القصة حتى يعرفون إن عيسى (عليه السلام) هو النبي المرسل .

وفي هذه الآية إعجاز علمي فقد أشارت إلى نظرية (التوارث عن السلف): وهي نظرية وضعها فرانسيس جولتون بعد سلسلة من البحوث والدراسات، إذ وجد أن الصفات يتوارثها الأبناء عن طريق الأم والأب [١٠٠]، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة العلمية في هذه الآية، التي دلت على انه لا يمكن أن تكون مريم خاطئة أو آثمة إذ لم تورث هذا الخطأ من الأب وإلام؛ ذلك بأن الصفات تورث.

الخاتمة:

وبعد تلك الرحلة الممتعة بصحبة كتاب الله، الذي شمل كل ما يلزم الإنسان معرفته من أمور الدين و الدنيا، بما يحقق له كمال الذات من جميع جوانبها العلمية والعملية، فضلاً عن الانسجام التام بين سائر الملكات والقوى والغرائز، التي يقوم عليها وجوده، فهو يهدي النفوس الحائرة، ويلين القلوب الصلدة، وهو أول كتاب وضع القواعد النفسية، التي لا تتغير بتغير الزمان والمكان، وما نظريات اليوم وما ينادي به علماء النفس إلا اقتباس من نظريات القرآن الكريم، سواء أعلم بها أصحابها أم لم يعلموا، فقد اشرنا إلى نظرية التحليل النفسي لفرويد، وكيف أشار إليها القرآن الكريم قبل مئات السنين،

وقد بين البحث عملياً كيف كان القرآن الكريم خير مقوِّم للسلوك، ثم أتخذ من المرأة إنموذجاً، مبيناً كيف راعى الخطاب القرآني هذا الكائن الحساس، فلم يراع – عزَّ وجَل – المرأة المخاطبة فقط بل ألقى بظلاله الروحية على المتلقي أيضاً، إذ تفاعلنا مع مريم وتأثرنا بقصة أم موسى، وتعاطفنا مع امرأة العزيز.

ومما تجدر الإشارة إليه أن القرآن الكريم لم يذكر اسم امرأة قط سوى (مريم)، إذ ورد ذكرها ثمان وعشرين مرة، وهذا إن دل على شيء، فهو يدل على أن ولادة المسيح (ﷺ)، لم تكن على وفق الطريقة البايلوجية الطبيعية، بل كانت معجزة خرقت قوانين الطبيعة؛ لذا يذكَّر بها الله – عزَّ وجَل – دائماً بذكر اسم مريم وتكراره مرات عديدة.

أما بقية النساء، فلم يشر إلى أسمائهن، ولأنّ أغلبهن زوجات، فقد أشار إليهن عن طريق الكناية مثل: (امرأة، أو نساء، أو زوج)، كـ: (امرأة عمران، ونساء النبي، وزوج ادم)، حتى المرأة غير المتزوجة، أو المرأة التي لم يذكر زوجها في القرآن الكريم، ارتبطت برجل ما، مثل: (أخت موسى، أو أم موسى، أوبنت شعيب)، وهذا يدل على أن الخطاب القرآني استعمل خصوصية حضارية مهمة، تُظهر احترام المرأة، وهذه صفة تستعمل في كل المجتمعات الحضارية، وفي كل العصور، وهي عدم التصريح باسم المرأة عند خطابها.

وقد كشف لنا الخطاب القرآني عن ملكات نفسية توجد عند اغلب النساء، منها: عدم القدرة على مواجهة الظلم، وتفضيل الموت، وعند السعي والمواجهة، وهذا لا يعد نقصاً في شخصية المرأة بل هو من مكملاتها؛ لان المرأة بطبيعتها لم تخلق للمواجهة، وبهذا كان هذا هو الجواب عن سؤال مفاده، لماذا لم يجعل الله – سبحانه وتعالى – المرأة نبيه ؟

ووقف البحث في بعض مراحل تحليله النفسي للآيات القرآنية الخاصة بالمرأة، على بعض الإشارات العلمية؛ ذلك بان أنّ من واجب كل بحث قرآني

في عصر كعصرنا، شاع فيه التشكيك في المعنويات وإنكار الغيبيات، أن يكشف عن إشارات الإعجاز العلمي؛ لما لذلك من أثر نفسي وعقلي عظيمينِ في هداية هذه الأمة، فعلى كل مسلم يدرك انه مسلم أن يرق قلبه، ويشفى غليله عندما يسمع آية قرآنية تتضمن إعجازاً علمياً.

وبعد هذا نحمد الله رب العالمين فأن كان النجاح قد حالفنا فهذا ما سعينا إليه، وإنْ أخطأنا فعذرنا إننا حاولنا واجتهدنا ومنه التوفيق والسداد.

ملخص البحث

القرآن خطاب الحق الذي يربط بين القلب والعقل والروح والفكر فقد راعى القواعد النفسية التي لا تتغير بتغير الزمان والمكان إذ تغلغل في شعاب النفس وجوانبها مما لم يهتدِ إليه العلم إلا حديثا فعند تدبر الخطاب القرآني نجده على نوعين: خطاب عقلي، وخطاب نفسي إذ يتجه الخطاب في بدايته إلى العقل وبعد أن يتيقن العقل من الحقيقة الفاصلة يلقي أوامره إلى النفس و الخطاب القرآني نفسي أكثر مما هو عقلي، فهو خطاب نفسي، يتوجه إلى النفس، فيعمل على ترغيبها، أو ترهيبها، أو جذبها، أو تحذيرها، ولهذا نحن نهتز للتعبير القرآني، وننفعل به، ونستجيب له لان فيه خطاباً موجهاً لنفوسنا، وهذا ما نسميه اليوم بـ(الإعجاز النفسي).

لذا كان من الحري بنا أن نقف عند (الخطاب النفسي) وقفة متأملة متأنية نقتبس من خلالها شذرات من القرآن الكريم تظهر لنا الأبعاد النفسية في الخطاب لقرآني متخذين من المرأة نموذجاً للبحث، إذ اشتملت الرعاية الإلهية هذا الكائن اللطيف فجاء الخطاب القرآني بما يناسب طبيعة (المرأة) وكان الخطاب معها على نوعين: مصرح به، وغير مصرح به. فالقرآن الكريم يستطيع أن يعبر عن كل حقيقة صراحة من دون حذر أو تردد ولكنه يتخذ وسيلة من وسائل التعبير الفني من دون تجريح أو تقريع أو لوم أو تعنيف فيأتي الخطاب

ليمس النفس مساً رفيعاً، ويداعب العواطف مداعبة هادفة، وقد ناول البحث هذين النوعين إذ بينا كيف راعى الخطاب القرآني هذا الكائن الحساس ولم يراعِ - عز وجل - المرأة المخاطبة فقط بل ألقى بظلاله الروحية على المتلقي أيضاً إذ تفاعلنا مع مريم وتأثرنا بقصة أم موسى وتعاطفنا امرأة العزيز.

ووقف البحث في بعض مراحل تحليله النفسي للآيات القرآنية الخاصة بالمرأة على بعض الإشارات العلمية ذلك بأن من واجب كل بحث قرآني في عصر كعصرنا شاع فيه التشكيك في المعنويات وإنكار الغيبيات، أن يكشف عن إشارات الإعجاز العلمي لما لذلك من اثر نفسي وعقلي عظيمينِ في هداية هذه الأمة .

ثم تطرق البحث إلى بعض جوانب الحوار الذي يعد احد أساليب الخطاب لما يحمله من أبعاد نفسية تلقي بضلالها على المتلقي فتأسر روحه وتجعله يتأثر بها ويتفاعل معها .

Abstract

Quran speech right that links between the heart and mind, spirit and thought it took into account the rules of the psychological do not change the time and place as the penetration in the coral self and aspects which had not been guided by the knowledge it is only recently 0 When management of the Koran we find two types: Address mental, and the letter myself, since moving speech in the beginning to the mind and the mind after a certain point of fact, cast his orders to the self. Qur'anic discourse myself more than my mind, is a letter myself, go to the self, is working to encourage her, or intimidation, or attraction, or warning, and for this we cower away to express the Quran, and be emotional tags, and respond to it because the speech in which he directed for our souls, and this is what we call today (b miracle psychological).

So it should therefore be declared on us to stand at (address psychological) and pause reflective careful to quote from which the fragments of the Koran reflects our psychological dimensions in the letter of the Koran "taking women a model of search, as it included the care of God this object Latif came the Koran to suit the nature of the (women) and her speech was of two types: an authorized and unauthorized. The Koran can be expressed for each fact explicitly without warning or hesitation, but it takes and means of artistic expression without offending or bashing or censure or rebuke ... Affect the self-name high, and flirts with emotions fondling meaningful, has handled Find these two types as explained how taken into account the Qur'anic discourse this object sensitive did not take into account - the Almighty - Women addressees only, but was overshadowed by the spiritual to the recipient as well as our interaction with Mary and moved by the story of the mother of Moses and sympathy to a woman Aziz.

هوامش البحث

(١) الفتح: ٢٩.

(٢) ينظر: الصوت القرآني وسكينة النفس، (بحث) :٤٩.

(٣) الرعد :٢٨.

(٤) المحاسن :١٩٢/١.

(٥) سورة البقرة: ٤٤.

(٦) ينظر: سورة البقرة: ١٦٤، ١٧٠، وآل عمران :١١٨، وغيرها الكثير .

(٧) الشمس :٧-١٠.

(٨) سورة البقرة :٢١٦.

(٩) النساء:١٠.

(١٠) ق :٣٠.

(١١) تحرير التحبير :٦٢٠.

(١٢) ينظر: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم: ٩٤٤.

(١٣) ق: ١٦.
(١٤) الدلالة النفسية للصورة القرآنية (بحث) :١٠١.
(١٥) مريم :١٦.
(١٦) ينظر: السيرة النبوية :٢٩٨/١.
(١٧) ينظر: تاريخ فكرة إعجاز القرآن منذ البعثة النبوية حتى عصرنا الحاضر (سلسلة بحوث):١٠٩.
(١٨) المدخل في علم النفس :٢٦، وهذا التعريف لجاريت.
(١٩) ينظر: معجم الطب النفسي والعقلي: ٤٣٢.
(٢٠) ينظر: المعجم الموسوعي للتحليل النفسي :٥٧.
(٢١) ينظر: المعجم التربوي وعلم النفس :٨٢٠.
(٢٢) يوسف :٢٥.
(٢٣) تفسير القرآن برواية الإمام علي (ع) :٥٣
(٢٤) سياحة في الغرب ومصير الأرواح بعد الموت :٤٩.
(٢٥) ينظر: المصدر نفسه :٤٩. ولم نجد هذا الحديث في كتب الحديث عند البحث عنه.
(٢٦) القيامة :١-٢.
(٢٧) ينظر: التعريفات: ٢٤٣.
(٢٨) الفجر: ٢٧-٣٠.
(٢٩) نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر :٢٨٨.
(٣٠) نظرية الركائز الأربعة للبناء النفسي :٤٩.
(٣١) النمل :١٠٢.
(٣٢) النحل: ١٣-١٤.
(٣٣) أصول البيان العربي في ضوء القرآن الكريم :١٥٦.
(٣٤) الزخرف: ١٩.
(٣٥) ينظر: التفسير الكاشف :٣٣٨-٣٣٩.
(٣٦) تفسير الميزان :١٢١/٩.
(٣٧) الرعد :٢٣.
(٣٨) الزخرف :٧٠.
(٣٩) الصافات: ٤٨-٤٩.

(٤٠) ينظر: التفسير الكبير :١٣٨/٢٦.
(٤١) في رحاب اللفظة القرآنية (بحث) :١٠٦.
(٤٢) الإعجاز الفني في القرآن :٧٢، نقلاً عن خصائص الدلالة القرآنية (بحث) :١٢٢.
(٤٣) طه :٥٤.
(٤٤) يوسف :٧.
(٤٥) ينظر: السيدة مريم في القرآن الكريم (قراءة أدبية): ٢٥٣.
(٤٦) مريم: ٩٦،٩٣،٩٢،٨٨،٨٧،٨٥،٧٨،٧٥،٦٩،٦١،٥٣،٥٠،٤٥،٤٤،٢٦،٢١،١٨،٢.
(٤٧) مريم: ٢-٧.
(٤٨) مريم :٢١.
(٤٩) مريم: ٤٩-٥٠.
(٥٠) سورة البقرة: ٢٣٣.
(٥١) ينظر: أساليب المعاني في القرآن الكريم :٣٢٠.
(٥٢) موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم ٧٩٣
(٥٣) القصص: ٧ .
(٥٤) يوسف :٣٠.
(٥٥) فقه اللغة :١٧١.
(٥٦) ينظر: التفسير الكبير: ١٦٢/١٨.
(٥٧) ينظر: لسان العرب :٧٨/٨، (ضلل).
(٥٨) يوسف ٨.
(٥٩) الحج: ١.
(٦٠) البديع في ضوء أساليب القرآن :٦٠.
(٦١) التحريم :١٢.
(٦٢) النساء ١٢٩.
(٦٣) ينظر: التفسير الكبير :٦٨/١١.
(٦٤) ينظر: المرآة بين الزواج والطلاق في المجتمع العربي :٤٧٩.
(٦٥) النساء :٣.
(٦٦) أساليب المعاني في القرآن الكريم:٤٢٠.
(٦٧) الدلالة النفسية للصورة القرآنية (بحث):٩٩.

(٦٨) المقصود هنا الخيال بمعناه العام وهو التوهم (Fancy). لا الخيال بمعناه الفني (Imagination)

(٦٩) التحريم :١١.

(٧٠) ينظر: التفسير الكبير :٣٠/٥٠.

(٧١) المؤمنون :٢٦.

(٧٢) مريم :٢٣.

(٧٣) آل عمران :٣٦.

(٧٤) الكشاف: ٤٢٦/١.

(٧٥) المجادلة :١.

(٧٦) الأحزاب :٣٣.

(٧٧) ينظر: التفسير الكبير: ٢٥ /٢٠٩

(٧٨) المسد :٤-٥.

(٧٩) ينظر: الاتساع في المعنى (دراسة جزء عم يتساءلون) :١٧١-١٧٣.

(٨٠) روح المعاني :٣٠/٦٩٠.

(٨١) أدب الحوار: ٧.

(٨٢) التصوير الفني في القرآن :٦٠.

(٨٣) ينظر: المصدر نفسه: ٦١.

(٨٤) القصص :٧-١٣.

(٨٥) ينظر: التعريفات: ١٠١.

(٨٦) ينظر: المصدر نفسه:٨٦.

(٨٧) البديع في ضوء أساليب القرآن:١٢١.

(٨٨) ينظر: تصريف القول في القصص القرآني :٤٧-٤٨.

(٨٩) هود :٤٢-٤٣.

(٩٠) المرأة بين الزواج والطلاق :٣٤.

(٩١) ينظر: السيدة مريم في القرآن الكريم (قراءة أدبية):٢٥٣،٢٥٢.

(٩٢) مريم: ١٦-٢٨ .

(٩٣) ينظر: السيدة مريم في القرآن الكريم (قراءة أدبية):٢٥٠.

(٩٤) ينظر: التفسير الكبير :٢٠٦/٢.

(٩٥) المصدر نفسه :٢٠٦/٢.

(٩٦) ينظر: السيدة مريم في القرآن الكريم (قراءة أدبية):١١٧.

(٩٧) ديوان الخنساء: ٦٤

(٩٨) ينظر: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم: ٧٦٠.

(٩٩) المصدر نفسه: ٧٦١.

(١٠٠) القرآن والإعجاز العلمي (بحث): ٣٥١